

مقدمة

ليس الأدب الحق تسلية وترفيهاً وإنما هو رسالة وقيادة .
كم من أديب خلال العصور فتح أمام الإنسانية آفاق حياة
جديدة فكان بمثابة مكتشف عظيم ، يكشف مغاليق النفس
الإنسانية ويرى المستقبل قبل غيره ويتجه بالحياة والمجتمع إلى
الطريق السوي .

والواقع أنه إذا كان من الممكن اعتبار « نيوتن » و « فراداي »
وغيرهما سحرة بارعين فكذلك الكاتب يجب أن يكون ساحراً
بارعاً . نعم ! فلقد كانت الجاذبية والكهرباء موجودتين قبل أن
يكشفهما العبقريان المجيدان ولكنهما لم يغيرا حياة الأفراد إلا
بعد اكتشافهما . كذلك الكاتب هو الذي يحدد الحياة عن طريق
كتبه أنه هو الذي يخلق صداقة جديدة وحباً جديداً وبطولة
جديدة وعذاباً جديداً . . أنه الذي يرفع قراءه إلى درجة من
الإدراك تجعلهم قادرين على أن يقولوا « نعم » أو « لا » وهذا
الإدراك نفسه هو الذي يمكن المصلحين من توجيه الفرد بل تغيير
تفكيره لأنه يكون قد تحرر من جموده وأضحى مرناً الذهن
كامل التمييز .

إن لتطور المجتمع الإنساني قانوناً علمياً لا يستطيع أن يقف

سيره إنسان . فالكتاب الأمين هو ذلك الذى يأبى إلا أن يتطور
فنه بتطور مجتمعه فيعبر عن آماله وأحلامه، يفضح عيوبه ونقائصه،
يحمل العلم ليسير في الطليعة ويشق الطريق الذى لا مناص منه .
ولكم عانى الكتاب التقدميون من النظم الرجعية وحكم الظلام
فى سبيل التمسك بعقائدهم والإخلاص لفنهم والدفاع عن شعوبهم
التي استبد بها الطغاة الذين استأثروا بالسلطان على اعتبار أن
الجمهير ما هي إلا « قطيع غبي » غير قابل للإصلاح وغير قادر على
الإصلاح ، ومع ذلك واصلوا كفاحهم واضعين نصب أعينهم أن
الشعب وخيره هو الهدف الأول لكل سياسة سليمة ، وأن قيمة
الأمة بأفرادها لا بمظاهر الترف والنعيم التافه ، وأن « الفرد هو أثن
أنواع رأس المال » فى نظر كل أمة حية تريد أن تتابع ركب
الحضارة ، وأن تكوين « الفرد » وتفتح شخصيته لا يمكن أن يتأتى
إلا فى جو من الحريات الكاملة وأولها حرية العلم المجردة من كل
توجيه خاص فى سبيل ثقافة حققة .

فى كل أمة توجد جماعة من رجال الجود تنظر إلى ظاهرة
انتشار التعليم أخيراً برعب وجزع لأن هذا التعليم كان ولا يزال
إلا حد كبير احتكاراً لطائفة خاصة أوصلها إلى الحكم ومضاعفة
الجاه وهى الآن تخشى أن تفقد هذا الاحتكار . وأكبر مثل على
ذلك أنه فى عام ١٩٣٤ ظهر فى فرنسا إحصاء يبين أن عدد الطلبة

المقيدين في جامعات فرنسا قد ارتفع بين عامي ١٩٠٠ و ١٩٣٤ من ٢٩ ألف إلى ٨٧ ألف طالب ، ورغم تفاهة هذه الزيادة بالنسبة للأمة كفرنسا خططت خطوات واسعة في التقدم فان رجال الرجعية فيها هبوا يشكون من « زيادة الإنتاج في المتعلمين » . ولقد صرح ذات يوم قبل اندلاع الحرب العالمية الأخيرة أحد وزراء فرنسا في حديث له مع مراسل مجلة « كانديد » بقوله « لقد آن الأوان لخلق فعلة وبنائين ومبيضين مما تحتاج إليهم فرنسا أكثر من حاجتها إلى حاملي ليسانس الآداب » .

وهذه النخمة التي تتردد في كثير من البلاد ترينا أن رجال الرجعية ينظرون إلى تضخم الإنتاج في التعليم نظرتهم إلى تضخم الإنتاج في الصناعة ، أو بعبارة أخرى ينظرون إلى الأدميين نظرتهم إلى البضائع ، وإلى الثقافة نظرتهم إلى مسألة تجارية استغلالية وهم لذلك يحاولون أن يحلوا مشكلتها بإحدى الطرق التي يلجأون إليها لحل أزمة تضخم الإنتاج الصناعي وهي التقليل منه قدر الطاقة . لقد نسي هؤلاء أو تناسوا أنه إذا كان هناك حقاً مشكلة من كثرة المتعلمين وحملة الشهادات رغم ضآلة عددهم بالنسبة لاجموع الأمة فهذه المشكلة لا تحل برجعية تحارب العلم وتهدر الثقافة بل بتطور اجتماعي واقتصادي يسير مع روح العصر مما قد يجعل العدد الموجود من المتعلمين أقل بكثير مما تحتاج إليه البلاد .

ومن عجب أن العدوى قد سرت من رجال السياسة إلى عدد من الكتّاب والمؤلفين . من ذلك مثلا أن بعض أعضاء « جمعية رجال الأدب » في فرنسا أثار منذ بضع سنوات في الجمعية مسألة « الدفاع عن المسرح والكتاب الفرنسيين بتحديد ترجمة المؤلفات الأجنبية » كأن أنانية أولئك الكتّاب تبرر حرمان الشعب الفرنسي من قراءة ثمار العقول العالمية من أجل ضمان توزيع مؤلفاتهم ومؤلفات أمثالهم وإن كانت لا ترضى أذهان طلاب الثقافة الحقة وضمائرهم .

فإذا كان هناك أدباء ينظرون إلى الثقافة هذه النظرة التي نظر بها بعض أعضاء « جمعية رجال الأدب » في فرنسا فذلك لأن هناك أدباء اتخذوا من الأدب بضاعة للكسب فحسب ، وهم بذلك أهل لخيانة الثقافة والفكر إذا اقتضت مصلحتهم الذاتية ذلك ، فتراهم يتقلبون مع الأهواء ، مستخدمين أقلامهم في التملق لدى السادة ، ويعيشون حياتهم أشبه ما يكونون بالخرباء ، يتلون الواحد منهم كلما تغيرت ظروف مغامرته وتحولات سبيل مصلحته ووصوليته . كذلك هناك أدباء ينظرون إلى الأدب على أنه وسيلة للمتعة والتسرية فلا يلبسون في معالجة الموضوع إلا جزءاً من حياة الفرد . لقد خلق المجتمع الحاضر تفاوتاً صارخاً بين الناس من حيث ثرواتهم وكفاءاتهم وأعمالهم ، فعند ما يستسلم الفرد يوماً من الأيام

لتحقيق متعة عاطفية مثلا يتهز الأديب السطحي هذه الفرصة
بشهوة مريضة ليمتثلها ويخرج منها موضوعا حسيا سارا لقرائه ،
ناسيا أن هذا الحادث العرضي في حياة شخصيته ليس له من أهمية
ولا يمكن الخروج منه بنتيجة إلا إذا كان مرتبطا بحياته كلها والمجتمع
الذي يعيش فيه .

وبعد . فهذا الكتاب يضم دراسات أدبية عن عدد من كبار
رجال الأدب المعاصر من كان الأدب في نظرهم رسالة مقدسة
ومثلا أعلى ، وكان لتفكيرهم — وإن اختلفت نزعاته — تأثير كبير
في الاتجاهات الفكرية الحديثة ، فذشأ لهم انباع ودعاة في مختلف
البلاد ، ليس فقط بين طائفة القراء والمثقفين بل أيضا بين شباب
الأدباء .

ولقد راعت قدر الطاقة الحيدة التامة في الكتابة عنهم ، شارحا
نواحي فنهم ، مبينا آراء النقاد في تفكير كل منهم حتى تكون
الدراسة مستوفية العناصر ، محققة الغرض المنشود .

على كامل